

مُتَبَرِّرُونَ بِالِإِيمَانِ وَحْدَهُ  
المحاضرة ٣: الخُمسة والتسعون احتجاجًا  
أ.ر.سي. سبرول

لَقَدْ تَتَبَعْنَا الْأَزْمَاتِ الَّتِي مَرَّ بِهَا مَارْتِنُ لُوثِرُ، وَكَمَا قُلْتُ، دَوْرِيًّا كُلَّ خَمْسِ سَنَوَاتٍ، عَامَ ١٥٠٥ ثُمَّ ١٥١٠. وَسَوْفَ نَتَّبَعُ هَذَا الصَّبَاحَ أَرْمَةَ عَامَ ١٥١٥. لَكِنِّي لَنْ أَتَطَّرَقَ إِلَى أَرْمَةَ سَنَةِ ١٥٢٠، السَّنَةِ الَّتِي حُرِمَ فِيهَا كَنَسِيًّا بِالْمَرْسُومِ الْبَابَاوِيِّ بِعُتْوَانِ "قُمْ يَا اللَّهُ" (*Exsurge Domine*)، كَمَا لَنْ أَتَطَّرَقَ إِلَى أَرْمَتِهِ الْخَطِيرَةِ لِعَامِ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ وَخَمْسَةِ وَعِشْرِينَ، حِينَ خَطَبَ كَاثَرِينَا فُون بُورَا، لَكِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ لَوْقَتٍ آخَرَ. لَكِنَّ أَعْتَقِدُ أَنَّ أَعْتَى أَرْمَاتِ لُوثِرِ الَّتِي شَكَلَتْ حَيَاتَهُ بِرُمَّتِهَا وَكَانَتْ الدَّافِعَ الْمُؤَثِّرَ الْحَقِيقِيَّ لِلِإِصْلَاحِ بِأَكْمَلِهِ، هِيَ الَّتِي اجْتَارَهَا سَنَةَ ١٥١٥. نَتَذَكَّرُ أَنَّهُ فِي سَنَةِ ١٥٠٧ كَانَ قَدْ رُسِمَ كَاهِنًا فِي دَيْرِ إِرْفُورْتِ.

وَفِي سَنَةِ ١٥١٠، ذَهَبَ إِلَى رُومَا، لَكِنَّ طَوَالَ الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ فِي إِرْفُورْتِ، كَانَ يُجْرِي دِرَاسَاتٍ لَاهُوتِيَّةً وَكِتَابِيَّةً مِنْ أَجْلِ نَيْلِ دَرَجَةِ الدُّكْتُورَاةِ. وَفِي السَّنَةِ ذَاتِهَا، بَدَأَ فَرِيدِيرِيكُ، أَمِيرُ سَاكْسُونِيَا، جَامِعَةً جَدِيدَةً تَمَامًا فِي وِيتِنْبُرْجِ، وَكَانَ يُحَاوِلُ، فِي مَرَاكِهَا الْأُولَى، تَعْيِينَ هَيْئَةِ تَدْرِيسِ بَارِزَةٍ. لِذَلِكَ حَصَلَ عَلَى خِدْمَاتِ لُوثِرِ عَلَى سَبِيلِ الْإِعَارَةِ مِنْ إِرْفُورْتِ لِيُحَاضِرَ لِمُدَّةِ عَامَيْنِ، كَمَا أَنَّهُ اسْتَعَانَ بِفِيلِيْبِ مِيلَانْكُونِ وَكَارْلِسْتَادْتِ وَجُونَاْسِ وَبَعْضِ الْآخَرِينَ لِيَكُونُوا ضِمْنَ هَيْئَةِ التَّدْرِيسِ. لَكِنَّ عَلَى أَيِّ حَالٍ، حَاضَرَ لُوثِرُ لِمُدَّةِ عَامَيْنِ ثُمَّ عَادَ إِلَى إِرْفُورْتِ. ثُمَّ عَادَ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى وِيتِنْبُرْجِ وَحَاضَرَ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ عَنِ سِفْرِ الْمَزَامِيرِ. وَعِنْدَمَا أَنْهَى هَذِهِ الْمُحَاضِرَاتِ، بَدَأَ فِي تَدْرِيسِ رِسَالَةِ رُومِيَّةِ، وَذَلِكَ عَامَ ١٥١٥.

أَقُولُ أَنَا عَامَ ١٥١٥، لَكِنَّ تَكْثُرَ الْجِدَالَاتِ بِشَأْنِ ذَلِكَ. إِذْ يَقُولُ الْبَعْضُ إِنَّهُ بَدَأَ ذَلِكَ مُبَكَّرًا فِي عَامِ ١٥١٢، وَآخَرُونَ يَقُولُونَ كَانَ مُتَأَخِّرًا فِي عَامِ ١٥١٩. لَكِنَّ مُعْظَمَ الدَّارِسِينَ يَضَعُونَهَا بَيْنَ عَامَيْ ١٥١٤ وَ ١٥١٥. وَلِأَجْلِ دَوْرَةِ الْأَرْمَاتِ الْخُمْسِيَّةِ، سَأَقُولُ إِنَّهَا عَامَ ١٥١٥. لَكِنَّ عَلَى أَيِّ حَالٍ، فِي أَثْنَاءِ مَا كَانَ يُعَدُّ مُحَاضِرَاتِهِ عَنِ رُومِيَّةِ، قَرَأَ أُطْرُوحَةَ لِلْقُدَيْسِ أَوْغُسْطِينُوسِ عَنِ الْحَرْفِ وَالرُّوحِ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي الْأَسَاسِ شَرْحًا لِرِسَالَةِ رُومِيَّةِ، بَلْ كَانَتْ تَتَنَاوَلُ أُمُورًا أُخْرَى. لَكِنَّ تَصَمَّنَتْ هَذِهِ الْأُطْرُوحَةُ تَحْدِيدًا تَلْمِيحَاتٍ مُوجِزَةً قَدَّمَهَا أَوْغُسْطِينُوسُ فِي ذِكْرِهِ لِلآيَةِ ١٧ مِنَ الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ لِرِسَالَةِ رُومِيَّةِ. فِي الْآيَةِ ١٦، يَبْدَأُ بُولُسُ تَصْرِيحَهُ بِأَنَّهُ لَا يَسْتَحْيِي بِإِنْجِيلِ الْمَسِيحِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ، وَيَسْتَظَرِدُ قَائِلًا: "لِأَنَّ فِيهِ" أَيِ الْإِنْجِيلِ "مُعَلَّنٌ بِرُّ اللَّهِ بِإِيمَانٍ، لِإِيمَانٍ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: "أَمَّا الْبَارُّ فَبِالِإِيمَانِ يَحْيَا".

أَمَّا لُوثِرُ فَقَدْ عَلَّقَ فِي الْبِدَايَةِ قَائِلًا إِنَّهُ طَوَالَ حَيَاتِهِ الْمُهْنِيَّةِ كَانَ يُصَارِعُ بِشِدَّةٍ ضِدَّ فِكْرَةِ عَدَالَةِ اللَّهِ بِرُمَّتِهَا. إِذْ تَمَثَّلَ مَا يَخَافُهُ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ فِي عَدْلِ اللَّهِ، مَا يَنْبَغِي لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَخَافَهُ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ. دَوْمًا مَا أَحَدُّرُ

طَلَّابِي قَائِلًا: "لا تطلبوا من الله عدالته أبدًا، كيلا تتألوهَا". هَذَا، فَقَدْ كَرِهَ لُوَثْرٌ مَفْهُومَ عَدْلِ اللَّهِ، وَهُوَ الْآنَ يُعَدُّ مُحَاضَرَاتِهِ بِشَأْنِ هَذِهِ الْآيَةِ الْمُتَحَدِّثَةِ عَنِ إِعْلَانِ عَدْلِ اللَّهِ وَبِرِّهِ، وَخُتِّمَتْ بِعِبَارَةٍ "أَمَّا الْبَارُّ فَبِالْإِيمَانِ يَحْيَا". وَفِيمَا كَانَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْأُطْرُوحَةَ الَّتِي كَتَبَ فِيهَا أَوْغُسْطِينُوسُ أَنَّ بِرَّ اللَّهِ الَّذِي يَتَحَدَّثُ عَنْهُ بُولُسُ فِي الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ مِنْ رُومِيَّةَ، لَيْسَ ذَلِكَ الْبِرُّ الَّذِي بِهِ وَفِيهِ اللَّهُ نَفْسُهُ بَارٌّ، بَلْ بِرُّ يَهْبُهُ اللَّهُ لِلْفُجَّارِ.

اسْمَحُوا لِي أَنْ أَقُولَ ذَلِكَ ثَانِيَةً، أَوْغُسْطِينُوسُ كَانَ يَقُولُ إِنَّهُ عِنْدَمَا كَتَبَ بُولُسُ فِي الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ مِنْ رُومِيَّةَ عَنِ بِرِّ اللَّهِ، لَمْ يَقْصِدْ بِرَّ اللَّهِ الْمُتَّصِلَ فِيهِ، الْبِرُّ الَّذِي بِهِ يَكُونُ اللَّهُ نَفْسُهُ بَارًّا. بَلْ يَتَحَدَّثُ عَنِ نَوْحٍ آخَرَ مِنَ الْبِرِّ، بِرُّ يَسْكُبُهُ اللَّهُ بِنِعْمَتِهِ عَلَى الْمُفْتَقِرِينَ إِلَيْهِ. أَيُّ أَنْتَا نَرَى هُنَا بَدَايَةَ تَطْوِيرِ لُوَثْرٍ لِلْمَفْهُومِ الْكَامِلِ لِاحْتِسَابِ بِرِّ اللَّهِ أَوْ بِرِّ الْمَسِيحِ لِلْمُؤْمِنِ، الَّذِي يَتِمُّ بِالْإِيمَانِ. كَمَا سَتَرَى لَاحِقًا، يَشْرَحُ بُولُسُ ذَلِكَ مُسْتَرَسِلًا فِي بَقِيَّةِ رِسَالَتِهِ إِلَى كَنِيسَةِ رُومِيَّةَ، وَلَكِنَّ مَفْهُومَ الْإِحْتِسَابِ يَعْنِي أَنْتَا لَسْنَا أَبْرَارًا بِالطَّبِيعَةِ، بَلْ أَنَّ اللَّهَ احْتَسَبَ كُلَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْمَسِيحِ بَارًّا، لِأَنَّهُمْ حِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْمَسِيحِ، يَنْتَقِلُ بِرُّ الْمَسِيحِ أَوْ يُحْتَسَبُ أَوْ يُنْسَبُ إِلَى الْمُؤْمِنِ بِالْإِيمَانِ؛ وَهَذَا كَانَ الْاِكْتِشَافَ الْعَظِيمَ لِلُوَثْرِ.

فَقَالَ: "عِنْدَمَا أَدْرَكْتُ الْبِرَّ الَّذِي يَتَحَدَّثُ عَنْهُ بُولُسُ فِي رُومِيَّةَ، فُتِحَتْ أَبْوَابُ الْفِرْدَوْسِ وَعَبَّرْتُ مِنْهَا". كَمَا رَأَى أَنَّ هَذِهِ اللَّحْظَةَ هِيَ لَحْظَةُ إِيْمَانِهِ، وَاِكْتِشَافِهِ لِلنِّعْمَةِ الْمُخْلِصَةِ. بَعْدَ كُلِّ الْعَذَابِ الَّذِي اجْتَازَهُ، وَكُلِّ السَّبِيلِ الْآخَرَى الَّتِي سَعَى بِهَا إِلَى إِرْسَاءِ السَّلَامِ مَعَ اللَّهِ وَلَمْ يُفْلِحْ فِي ذَلِكَ قَطُّ، قَالَ فَجَاءَهُ إِتَهُ وَوَلَدَ مِنْ جَدِيدٍ، وَإِنَّهُ الْآنَ فِي سَلَامٍ مَعَ اللَّهِ مِثْلَمَا شَرَحَ بُولُسُ فِي الْأَصْحَاحِ الْخَامِسِ مِنْ رُومِيَّةَ، لِذَا أَنْتُمْ الْآنَ تَحْظُونَ بِبَعْضِ الْإِدْرَاكِ الْوُجُودِيِّ لِمَا عَنَاهُ هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى لُوَثْرٍ مِمَّا مَنَحَهُ الْقُدْرَةَ عَلَى الْوُقُوفِ ضِدَّ طُوفَانِ مِنَ التَّقْدِيرِ وَالْعَدَاءِ مِنَ الْعَالَمِ وَمِنَ الْكَنِيسَةِ وَمِنْ حَتَّى زُمْرَتِهِ فِي جَامِعَتِهِ فِي الْبِدَايَةِ. وَهَكَذَا، كَانَ قَادِرًا عَلَى الثَّبَاتِ لِأَنَّهُ نَالَ الْخِلَاصَ. فَلَمْ يَقَايِضْهُ أَوْ يَتَفَاوَضْ عَلَيْهِ مُقَابِلَ أَيِّ شَيْءٍ. وَعَلَيْهِ، قَالَ إِنَّ هَذَا الْاِكْتِشَافَ دَفَعَهُ لِيُعِيدَ قِرَاءَةَ الْمَزَامِيرِ بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَعَبَّرَ مَفْهُومَهُ بِرُمَّتِهِ نَحْوَهَا. بَدَأَ يَرَى التَّبَرُّيرَ بِالْإِيمَانِ فِي كُلِّ صَفْحَةٍ مِنْ صَفْحَاتِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ بِعَهْدَيْهِ فِعْلِيًّا، فَكَانَتْ تَتَلَأَلُ هَذِهِ الْمَقَاطِعَ أَمَامَهُ وَتُوَكِّدُ مَا قَدْ فَهِمَهُ هُوَ وَأَوْغُسْطِينُوسُ مِنْ قَبْلِهِ عَنِ الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ لِرُومِيَّةَ.

لِذَلِكَ، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ هُنَا حَتَّى قَبْلَ وَقُوعِ جِدَالِ عَامِّ، إِنَّ الْإِصْلَاحَ أَوْ بُدُورَ الْإِصْلَاحِ قَدْ زُرِعَتْ فِي اخْتِبَارِ لُوَثْرٍ الشَّخْصِيِّ. وَلَكِنَّ مَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عَامِ ١٥١٧ - الَّذِي نَعْتَبِرُهُ عَادَةً بِدَايَةَ الْإِصْلَاحِ، حِينَ عَلَّقَ لُوَثْرٌ اخْتِجَاجَاتِهِ الْخُمْسَةَ وَالتَّسْعِينَ عَلَى بَابِ كَنِيسَةِ الْقَلْعَةِ فِي وَيتنبرج - تَعُودُ جُذُورُهُ إِلَى الْجِدَالِ الْمُتَعَلِّقِ بِبَيْعِ صُكُوكِ الْعُفْرَانِ. لِفَهْمِ ذَلِكَ، لِنَعُدْ لِبِضْعِ دَقَائِقٍ إِلَى ذَلِكَ. فِي عَامِ ١٥١٣، فِي الْمَقَاطِعَةِ الْمَجَاوِرَةِ الْمُسَمَّاةِ "بِرَانْدِنُوج" كَانَ يَعِيشُ أَمِيرٌ مِنْ آلِ هُوْنزُولِرِن يُدْعَى أَلْبِرْت، وَكَانَ يَبْلُغُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلَاثَةَ وَعِشْرِينَ عَامًا. كَانَ لِأَخِيهِ الْأَكْبَرِ طُمُوحَاتٌ كَبِيرَةٌ لِعَائِلَتِهِ

هُوهُزُولُن وَأَهْل بَيْتِهِ، إِذْ كَانُوا يُرِيدُونَ اكْتِسَابَ قُوَّةٍ وَتَأْثِيرًا أَعْظَمَ فِي جَمِيعِ أُنْحَاءِ أَلْمَانِيَا. فَمَا حَدَثَ عَامَ ١٥١٣ هُوَ أَنَّ ثَلَاثَ إِبْرَائِشِيَّاتٍ أَصْبَحَتْ شَاغِرَةً. الْأُولَى إِبْرَائِشِيَّةُ رَئِيسِ أَسَاقِفَةِ مَاجِدُبُورْجِ وَالثَّانِيَةُ إِبْرَائِشِيَّةُ هَلْدِرْشْتَاتِ وَالثَّالِثَةُ وَالْأَهْمُ إِبْرَائِشِيَّةُ رَئِيسِ أَسَاقِفَةِ مِينز. كَمَا أَنَّ أُسْقَفَ مِينزِ هُوَ مَنْ صَارَ فَعْلِيًّا بَابَا أَلْمَانِيَا. أَعْنِي، كَانَ أَعْلَى مَنَصِبِ سُلْطَةِ كَنَسِيَّةِ فِي الْأُمَّةِ بِرُمَّتِهَا.

كَانَ الْأَمْرُ أَنَّ أَخَ الْأَبْتِ يَتَحَايَلُ لِلْحُصُولِ عَلَى تِلْكَ الْإِبْرَائِشِيَّاتِ لِأَلْبُرْتِ لِيَكُونَ رَئِيسَ أَسَاقِفَةِ مَاجِدُبُورْجِ، وَأُسْقَفَ هَلْدِرْشْتَاتِ، وَرَئِيسَ أَسَاقِفَةِ مِينزِ جَمِيعًا فِي آنٍ وَاحِدٍ. وَتَمَثَّلَ سَبِيلُ تَحْقِيقِ ذَلِكَ فِي شِرَاءِ هَذِهِ الْمَنَاصِبِ مِنَ الْبَابَا. أَتَدَكَّرُونَ حِينَ قُلْتُمْ إِنَّ الْبَابَوِيَّةَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَتْ فِي أَشَدِّ عُصُورِهَا فَسَادًا. فَتَحْنُ أَمَامَ يُولْيُوسِ الثَّانِي الَّذِي كَانَ أَحَدَ الْبَابَاوَاتِ مِنْ أُسْرَةِ آلِ بُولْرَجِيَا الْبَابَوِيَّةِ، وَخَلَفَهُ لِيُو الْعَاشِرُ، الَّذِي حَرَّمَ لَوْثَرَ كَنَسِيًّا، وَكَانَ أَحَدَ الْبَابَاوَاتِ مِنْ أُسْرَةِ آلِ مِيدِينْشِي الْبَابَوِيَّةِ. فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ، كَانَتْ السِّمُونِيَّةُ (أَيُّ شِرَاءِ الْمَنَاصِبِ الْكَهْنُوتِيَّةِ)، مُتَفَشِّئَةً عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ. السِّمُونِيَّةُ هِيَ تِلْكَ الْخَطِيئَةُ الَّتِي أُدِينَتْ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ، تَتَدَكَّرُونَ عِنْدَمَا رَأَى سِيمُونُ السَّاحِرُ آيَاتِ الرُّسُلِ الْمُعْجَزِيَّةِ، وَأَرَادَ أَنْ يَشْتَرِيَ الرُّوحَ الْقُدُسَ، وَتَدَكَّرُونَ بِطُرُسٍ حِينَ قَالَ: "لِتَكُنْ فِضَّتْكَ مَعَكَ لِلْهَلَاكِ"، الَّتِي هِيَ طَرِيقَةٌ مُهَذَّبَةٌ لِقَوْلٍ: "لِتَذْهَبْ أَنْتِ بِأَمْوَالِكَ إِلَى الْجَحِيمِ، فَلَنْ نَقُومَ بِهَذِهِ الصَّفْقَةِ". فَأُطْلِقُ عَلَيْهَا السِّمُونِيَّةَ لِأَنَّ سِيمُونََ السَّاحِرَ هُوَ مَنْ حَاوَلَ شِرَاءَ قُوَّةِ الرُّوحِ الْقُدُسِ. وَهَكَذَا تَفَشَّتْ بَيْعُ الْمَنَاصِبِ الْكَنَسِيَّةِ فِي هَذَا الْوَقْتِ مِنَ التَّارِيخِ، وَبِالطَّبَعِ كَانَ الْأَبْتُ يُحَاوِلُ الْاسْتِفَادَةَ مِنْهَا.

بِالإِضَافَةِ إِلَى التَّهْيِ الْكِتَابِيِّ لِلْسِّمُونِيَّةِ، تَفَرِّضُ بُنُودُ قَانُونِ كَنِيسَةِ رُومَا جِرْمَانِيَّةَ كَنَسِيَّةً. أَوَّلًا: لَا يَحِقُّ لَكَ تَوَلِّيَ أَكْثَرَ مِنْ إِبْرَائِشِيَّةٍ وَاحِدَةٍ فِي آنٍ وَاحِدٍ؛ فِي حِينِ الْأَبْتِ أَرَادَ ثَلَاثَ. ثَانِيًا: كَانَ صَغِيرًا عَلَى أَنْ يُرْسَمَ أُسْقَفًا، إِذْ كَانَ فِي الثَّلَاثَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ. وَبِمَا أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ مِنْ اخْتِصَاصِ الْبَابَا، فَالْمَالُ تَحَدَّثَ. لِيَا أُجْرِيَتْ مَفَاوِصَاتٌ بَيْنَ مُمَثِّلِي الْأَبْتِ وَالْأَبْتِ نَفْسِهِ مَعَ الْبَابَا، وَكَانَ قَادِرًا عَلَى دَفْعِ مُقَابِلِ الْإِبْرَائِشِيَّاتِ الثَّلَاثِ، إِبْرَائِشِيَّةِ رَئِيسِ أَسَاقِفَةِ، وَإِبْرَائِشِيَّةِ أُسْقَفِ، وَبَلَغَتْ تَكْلِفَتُهُمُ الْإِجْمَالِيَّةُ مِئَتَيْنِ وَخَمْسِينَ أَلْفَ دُولَارٍ تَقْرِيبًا.

وَعِنْدَ الدَّفْعِ مُقَابِلِ هَذِهِ الْمَنَاصِبِ، تَفَاوَضَ مَعَ الْبَابَا بَعْضُ الشَّيْءِ. عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَنَصِبِ رَئِيسِ أَسَاقِفَةِ إِبْرَائِشِيَّةِ مِينزِ، كَانَ السِّعْرُ الْمَعْرُوفُ يَبْلُغُ ١٢ أَلْفَ دُولَارٍ دَهَبِيَّةً، لَكِنَّ الْبَابَا أَرَادَ مِنَ الْأَبْتِ مَضَاعَفَةَ الْمَبْلَغِ قَائِلًا: "لِتَحْصُلْ عَلَى دَهَبِنَا دُفْعَةً وَاحِدَةً". فَأَجَابَهُ: "لَا، سَأَعْرُضُ عَلَيْكَ سَبْعَةَ آلَافٍ، كُلُّ أَلْفٍ مُقَابِلِ خَطِيئَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْخَطَايَا السَّبْعِ الْمُحْتَمَلَةِ". بَيْنَمَا الْبَابَا كَانَ يُرِيدُ أَلْفًا مُقَابِلَ كُلِّ تَلْمِيذٍ مِنَ الْإِثْنَيْ عَشَرَ. وَرَسِيَ الْإِتِّفَاقُ النَّهَائِيَّ عَلَى دَفْعِ عَشْرَةِ آلَافٍ دُولَارِيَّةٍ دَهَبِيَّةً، كُلُّ أَلْفٍ مِنْهَا مُقَابِلَ كُلِّ وَصِيَّةٍ مِنَ الْوَصَايَا الْعَشْرِ. فَمَا حَدَثَ لِي كَيْ تَتَمَّ هَذِهِ الصَّفْقَةُ الْكَبِيرَةُ، تَحْتَمَّ عَلَى الْأَبْتِ اقْتِرَاضَ الْمَالِ، وَكَانَ الْبَنْكُ الْكَبِيرُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ هُوَ بَنْكُ فُوجِرْزِ فِي أَلْمَانِيَا، لِذَا تَوَسَّطَتْ

عائلة فوجرز، بنسبة ماليّة، في هذه الصّفقة بين ألبرت والبّابا. ولجمّع المال وتسليمه إلى ألبرت، ليدفعه إلى البّابويّة للحصول على هذه الإبراشيّات، لزم تدخل البّابا في اتّفاق مع آل فوجرز لجمّع المال لدفعه ثمنا لهذه الإبراشيّات الثلاث.

بإتمام هذه الصّفقة، بدأت حملة صكوك الغفران التي قدّمها يوهان تيتزل (Johann Tetzel). لقرّون، تبنّت الكنيسة الكاثوليكيّة مفهوم صكوك الغفران هذا، الذي واصل التوسّع في تطبيّقه بتقليص فترة المظهر أو الخروج منه مرّة واحدة، وبالوصول على صكّ غفران عامّ لسرّ جميع خطاياهم من لحظة شرائه وإلى الأبد. وكان مرتبطا بسرّ التوبة والاعتراف، الذي سألّ شرحه لاحقا، وبأعمال الاستحقاق التي ينبغي للخطّاء تأديتها؛ بعبارة أخرى ليُسْتَرَدَّ إلى الإيمان المُخلّص. ومن بين أعمال الاستحقاق هذه: ممارسات بسيطة مثل ترديد صلاة "أبانا الذي" كثيرا، والإكثار من ترديد تسبحة "السلام عليك يا مريم"، مثلما فعل لوتر في رحلته إلى روما لينال صكوك الغفران مع كلّ خطوة يصعدّها على الدّرج المقدّس في كنيسة لا تيران. والآن امتدّ هذا الأمر ليشمل العطايا الماليّة، أي إنّ التصدّق والتبرّع سيساعد الخطّاء على استرداد حالة النعمة.

ساستفيض في هذا لاحقا. لكنّ وقتئذٍ، لجمّع الأموال من أجل استكمال بناء كنيسة القديس بطرس التي بدأها يوليوس الثاني وتوقّف الأمر بنقاد المال ثمّ استعمار الحشائش الأساسات، رغب ليو العاشر في إنهاء ذلك المشروع الضخم، لذلك شرّع وقتن توزيع صكوك الغفران للبيع.

وكان الأمر أنّ على الخطّاء التصدّق والتبرّع محتسبا إياه عملا من أعمال الاستحقاق، لكنّ ينبغي أن يتم الأمر بقلب صادق. لكنّ الكنيسة تجتبت أيّ ذرّة فكرة حمقاء لشراء الخلاص. الخلاص ليس للبيع، نوعا ما، ولكنّ صكوك الغفران هي للقلب المستقيم وما إلى ذلك. لذا، بالاتّفاق مع ألبرت، أعني بين ألبرت والبّابا ومصرفي فوجرز، أصدر صكّ الغفران الشامل هذا، وكلّفت كنيسة روما لجنة صكوك الغفران الخاصّة برئاسة تيتزل بالذهاب إلى مقاطعات ألمانيا وتوزيع المرسوم البابوي الذي يعلن عن حملة صكوك الغفران الجديدة هذه.

فقد كان تيتزل بائعا ماهرا. لم يكن حيّ الضمير، لكنّه كان ناجحا للغاية. وأتسم بيع صكوك الغفران بالبهرجة قبل أسابيع من وصول المندوب البابوي إلى كلّ بلدة وقرية، إذ كان الرسول ينادي قائلا: "الشهر المقبل في يوم كذا وكذا، في ذلك اليوم، سيحضّر المندوب البابوي، حاملا صكوك الغفران من أجلك إذا قدّمت التبرعات اللازمة مقابلها". لدرجة أنّهم كانوا يحملون مقياسا يحسب مقدار المال مقابل صكّ غفران لأحد النبلاء مقارنة أو في مقابل الذي لفلاح، وكان المقدار يختلف حسب كلّ تاجر.

المهم أنهم كانوا يتأدون بالرسالة مسبقًا. وفي يوم وصول المندوب بالمرسوم، يُجهز الموكب المقدس الضخم للمرسوم البابوي، كانت تحمل وثيقة المرسوم إما على سادة مطرزة بالذهب أو سادة مخملية؛ فكان الأمر أشبه بسيرك قادم إلى البلدة. وكان يندفع جميع الشعب إلى ساحة البلدة ويصطفون ليشراء صكوك غفران من أجل أقاربهم وأحبائهم. وقتئذٍ استخدم تيتزل، لا نعرف ما إذا كانت حقيقة أم خرافة، شعار "مع زنين كل عملة داخل الصندوق، تخرج نفس من المظهر". أي، إذا اشتريت صك الغفران، فقد وصلت إلى السماء حُرًا.

كان هذا يحدث بعيدًا عن مدينة لوتر، لكنه دأع صيته للغاية وكان الشعب متحمسًا جدًا له لدرجة أن شعب كنيسة لوتر سافروا، واشتروا صكوك الغفران من تيتزل، وعاد كل منهم إلى ويتنبرج بصك غفران مملوحين به في وجه أصدقائهم قائلين: "انظروا، لقد عُفرت كل دُنوبي". وارتعد لوتر، الذي كان راعيًا وقتئذٍ، لأنه كان يعلم أن بعض حاملي هذه الصكوك ليسوا سوى مجرمين ووثنيين علمانيين. ولهذا السبب، مدفوعًا من اهتمامه الرعوي، أراد مناقشة الأمر مع زملائه من أعضاء هيئة التدريس في جامعة ويتنبرج. ولإجراء مناقشة أكاديمية، عليك بنشر الاحتجاجات لمناقشتها في ندوة علمية، لا للاستهلاك العام. لذا، كتبها لوتر باللاتينية. كتب الاحتجاجات الخمسة والتسعين، وعلقها على باب الكنيسة في ويتنبرج ودعا بقية أعضاء هيئة التدريس لمناقشة صكوك الغفران والنظام بأكمله المنخرط فيها.

فقرأها بعض الطلبة الجريئين، وقد اندهشوا منها. ودون معرفة لوتر أو استئذانه، أخذوا هذه الاحتجاجات اللاتينية، وترجموها إلى الألمانية، وبمطبعة جوتنبرج المخترعة حديثًا، استطاعوا طباعة الاحتجاجات. وفي غضون ١٤ يومًا، أي أسبوعين، وأقل من نصف شهر، كانت الاحتجاجات بنسخها في كل قرية ومدينة وكل ضيعة في ألمانيا، كان الأمر مثل النار في الهشيم. وبتداولها بين الشعب، بدأ كل شيء. يُعقب كارل بارت على الأمر قائلًا: "لم يكن في نية لوتر تضخيم الأمر ونشره بين العامة". كان سيناقش الأمر ببساطة مع زملائه، لكن الاستعارة التي استخدمها بارت كانت: "كان مثل رجل أعمى يضع سلالم برج جرس الكنيسة وقد توازنه، فتحسست يده في الظلام وأمسكت بأول شيء يمكنه حمله، وكان حبل جرس الكنيسة". وفجأة بدأ جرس الكنيسة يرن ويوقظ كل من في البلدة، فهذه كانت نتيجة الاحتجاجات.

فلم تضطرب ألمانيا وحدها، بل وصل خبر الاحتجاجات بسرعة البرق إلى تيتزل وألبرت، فأبلغا يدورهما البابا ليو العاشر في روما عن هذه الاحتجاجات، التي رفضها كليًا واعتبره راهبًا محمورًا في ألمانيا، لا يفقه شيئًا. ولكن تواصل أوج الأمر حتى في النهاية جلب لوتر إلى المجمع الإمبراطوري في فورمز عام ١٥٢١ ليتراجع عنها وينكرها، لكنه قال:

"تَطْلُبُونَ مِنِّي التَّرَاجُعَ، تَطْلُبُونَ مِنِّي الإِجَابَةَ *non cornutum* بِدُونِ أَبَوَاقٍ. "لا يُمَكِّنِي التَّرَاجُعُ مَا لَمْ تُثْنِعْنِي  
الْكَلِمَةُ الْمُقَدَّسَةُ أَوِ الْمَنْطِقُ الْوَاضِحُ. فَإِنِّي لَنْ أَتَرَاجَعَ لِأَنَّ صَاحِبِي أَسِيرُ كَلِمَةِ اللَّهِ؛ وَالسُّلُوكَ فِي مُخَالَفَةِ لِلصَّامِرِ  
لَيْسَ صَوَابًا أَوْ آمِنًا. هُنَا أَقِفْ، وَلَيْسَ بِيَدِي شَيْءٌ آخَرَ. لِيُعَيِّنِي اللَّهُ".

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ بَقِيَّةَ الْقِصَّةِ.

في مُحَاضَرَتِنَا التَّالِيَةِ، مَا أُرِيدُ أَنْ نَقُومَ بِهِ هُوَ إِقْلَاعُ نَظَرَةٍ عَلَى تَارِيخِ النِّظَامِ الْكَامِلِ لِوُجْهَةِ نَظَرِ الْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ  
عَنِ التَّبَرِيرِ، لِفَهْمِ كَيْفِ وَصَلَ هَذَا إِلَى ذُرُوتِهِ مَعَ جَدَلِ صُكُوكِ الْغُفْرَانِ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ أَفْضَلَ طَرِيقَةَ فَهْمِ أَنَّ عَقِيدَةَ  
التَّبَرِيرِ الْبُرُوتِسْتَانْتِيَّةِ أَوِ الْمُصْلِحَةِ، تَارِيخِيًّا، ضِدَّ خَلْفِيَّةِ وَجْهَةِ نَظَرِ الْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ. فَبِمَشِيئَةِ اللَّهِ سَنَفْعَلُ ذَلِكَ  
الْمَرَّةَ الْقَادِمَةَ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خَدَمَاتِ لِيْجُونِيَرِ، وَكَانَ أَحَدَ رِعَاةِ كَنِيسَةِ الْقُدَيْسِ أَنْدْرُو ( St. Andrews  
Chapel ) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِإِصْلَاحِ ( Reformation  
Bible College ). وَهُوَ مُؤَلِّفٌ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُنَّا لَاهَوْتِيُونَ" و"أَدَهَشَنِي الْأَلَمُ".